

بنية الخطاب في الرحلة السفارية؛ رحلة ابن فضلان نموذجًا

the discourse structure of ambassadorial journey; journey of Ibn Fadlan model

أحمد خولي

ahmed khouli

جامعة النجاح الوطنية. قسم اللغة العربية

*الباحث المراسل: ahmadkhoul94@gmail.com

تاريخ التسليم: (2018/03/28)، تاريخ القبول: (2018/06/10)

الملخص

هذه دراسة تسعى إلى استصراح خصائص الخطاب المُنْبِيئة للرحلة السفارية، لما كانت الأخرى فعلاً تاريخياً موجّهاً ذات الرحالة لغرض دبلوماسي قصدته إليه السلطة السياسية قسداً، على المستوى المرجعي الواقعي من جهة، وفعلاً تمثيلاً يسعى فيه الرحالة إلى ترهين رحلته وتوثيق مشاهداته عبر نظام ترميزي (نظام الكتابة) تووّل الكلمات فيه الأشياء دون أن تنسخها من جهة أخرى، ووفق نسق توأصلي يحكّم أسلوبه سلطة المرسل إليه/ الخليفة، على المستوى السردى الخطابى، تأسيساً على ما تقدّم؛ تتوسّل الدراسة بالسرديات، وما تقدّمه من مفاهيم إجرائية لتحليل المكونات الخطابية المشيّدة صرخ الرحلة السفارية، كالزمن والسرد، والوصف، والتقرير، والغرائبية، والعجائبية، في رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالية. يسبق ذلك الوقوف التكويني على مظهرات الرحلة في الخطاب الشعري العربي قبل أن تغدو نوعاً سردياً يمتلك مميزاته الخطابية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة السفارية، السرد، الخطاب.

Abstract

in this study the researcher tries to identify the characteristics of the ambassadorial journey ,in the past this journey have been considered not only as a historical act carried out by the traveler for a diplomatic purpose ,but also as a representative act to be done when the traveler documents his observations through a coding system whose mechanisms is determined by the authority of the receiver .Thus the study use narratology and their concepts in order to identify the characteristics of ambassadorial journey. This was demonstrated by the journey of Ibn Fadlan to Turkey, Russia and Bulgaria, but before that it is necessary to identify (to know) the journey in the Arab poetic discourse.

Keywords: ambassadorial journey, discourse, narrative

1-تكوين:

تُعَدُّ الرّحْلةُ أحدَ التّقاليدِ الرّاسخةِ في حياةِ الإنسانِ، والموعلةُ في القدمِ في أن واحدٍ، فهي قديمةٌ قدمَ ركوبِ الإنسانِ البحرَ وابتكاره وسائلَ مكنته التّنقّلَ والارتحالَ من فضائيه الجغرافيِّ إلى فضاء جغرافيٍّ آخر، وهي قديمةٌ قدمَ رغبته في التعرفِ إلى ثقافاتٍ غيره، وهي قديمةٌ قدمَ قلّقه من ألفةِ عالمه وحاجته إلى تسجيلِ تجاربٍ في عوالم الغرابة، وهي قديمةٌ قدمَ نزعةَ الدّينيّةِ التي دفعته إلى إشباعها عبر سفره وارتحاله إلى معابده المقدّسة، كما هي قديمةٌ قدمَ حاجته إلى تأسيسِ علاقاتٍ اقتصادية، وتجارية، وسياسية، وعسكرية مع الآخر الذي يجاوره أو لا يجاوره.

والعربُ شأنهم في الرّحْلةِ والارتحالِ شأنُ مختلفِ الحضاراتِ الإنسانيّةِ، بل قد نتعدى ذلك فنقول: تُعَدُّ الحضارةُ العربيّةُ من طلائع الحضاراتِ الإنسانيّةِ التي عرفتِ الرّحْلةَ، ومارستِ الارتحالَ، ومردّدٌ ذلك إلى غيرِ عاملٍ ومرجعٍ، فمن جهةٍ قساوةِ البيئةِ العربيّةِ ووعورتها التي فرضت على إنسانها، بل خلعت عليه طابعَ الرّحْلةِ الدائمِ الارتحالِ، فأرضهم فلوأث موات، قليلةُ الأقوات، قد جعلت العربيَّ ومجتمعَه رَحْالَةً مستكشِفًا يبحثُ عن مواضع الكأ والماء، ولا أدلّ على ذلك من رسوخِ عنصرِ الرّحْلةِ في القصيدةِ العربيّةِ الجاهليّةِ حتى غدا ذلك العنصرُ ركناً رئيساً من أركانِ معمارها.

ومن جهةٍ ثانية، امتنهنّ العربُ التّجارةَ، وجابوا مختلفَ المسالكِ والممالكِ رغبةً في تحصيلِ صنوفٍ من البضائعِ يأتونها من ديارها إلى ديارهم كالحرير، والبخور، والتوابل، فكانت رحلاتهم التجارية جماعيةً تأخذ شكلَ قوافلٍ تميذُ في الصحراءِ، وتجوبُ الأمصارَ، وتقتحمُ الفضاءاتِ الجغرافيةَ التي تواجهها، وقد كان لذلك أن يتم، كما كان لمهامها

التجارية أن تُنجز، في حيزٍ زمنيٍّ يُرَجَّحُ أن يكونَ، لبعضِ الرّحلات التجارية، ذا تقليدٍ موسميٍّ، الأمر الذي يرشدنا إليه قوله تعالى¹: ﴿إِلْيَافٌ قُرَيْشٍ (1) إِيْلَافُهُمْ رَحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)﴾.

وهكذا، فقد كانت رحلتنا قريش التجاريّتان رحلتين موسميّتين تتجه الرحلة الشتويّة إلى اليمن، أمّا الرحلة الصيفيّة فإلى بلاد الشام².

كما نستنتج من سورة قريش أمرًا آخر غير كَوْنِ بعضِ الرّحلات التجارية موسميّة، وهو أنّ الرّحلات التجاريّة قد تكون مهمّدةً برحلات استكشافيّة وسفاريّة قبلها، هدفها مطالعةُ خط سير الرّحلة واستكشافه، وعقدُ التحالفات المختلفة، وأخذُ الأمان من القبائل العربيّة، والجوار الأجنبيّ، الذي قد تمرّ الرحلة من دياره لنلّا ينتهكها ويسلب بضائعها، هذا الأمر الذي توحى به دلالة (الإيلاف)، أي الأحلاف التجارية، أو ما يُصطلح عليه بالعقود التجارية والسياسيّة والعسكريّة في عصرنا³.

ومن جهة أخرى، تبوأت الرحلة السفاريّة مكانةً رفيعة عند العرب في عصورهما الجاهليّ والإسلامي، وهي ما أصطلح على تسميتها بينهم بـ(الوفود)، حيث وضع العربُ تقاليدَ الوفاة (وهي ما نصطلح عليها بالتقاليد الدبلوماسية في عصرنا) للوفود التي تُقدّم بينهم، كأن يكون على رأس الوفد خطيب وشاعر يُفصحان القولَ عمّا جاء به الوفد بوصفه سفيرًا لقبيلته، أو تلك الوفود التي أخذ العرب يقدونها إلى الآخر الأجنبيّ، كوفودهم إلى كسرى، ولكثرة ما وصلنا من أخبار عن وفود العرب، عقّد ابن عبد ربه الأندلسي في عقده الفريد لوفود العرب بابًا أسماه (كتاب الجمّانة في الوفود)⁴.

نخلص من هذه المقدمّة التكوينية إلى أنّ العرب عرفوا الرّحلة بوصفها فعلًا يُنجزُ عبر الانتقال من فضاءهم الجغرافيّ إلى فضاء جغرافيّ آخر، قد يكون جوائيًا داخل الجزيرة العربيّة كرحلة الظعن لاستكشاف مواضع الكلا والماء، والرّحلة الدينيّة التي كانوا يقدون فيها مكة لأداء شعائرهم الدينيّة، وما يُصاحبها من إقامة أسواقٍ للشعر وتبادل البضائع، أو قد يكون فعل الرّحلة برائياً خارج حدود الجزيرة العربيّة كرحلتي قريش الموسميّتين إلى اليمن وبلاد الشام، وما يصاحبهما من استكشاف وإقامة أحلاف.

كما نخلص إلى أنّ الرّحلة بوصفها خطابًا قد شكّلت مادةً للخطاب الشعريّ في القصيدة الجاهليّة، أمّا أن تصبّح نوعًا سرديًّا يمتلك مميزات الخطابيّة، فهذا ما سيظهر في مراحل لاحقة من مراحل اتّساع رقعة الدولة الإسلاميّة، وظهور الحاجة إلى تدوين الرّحلات.

2- الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات السابقة التي تناولت رحلة ابن فضال وتوّعت في مقاربتها، ولعلّ ما يهتمنا هنا تلكم الدراسات التي تقرب في مقاربتها التحليليّة من دراستنا، فمن بينها دراسة الباحثة نوير سعيد عبود باجابر الموسومة بعنوان: (رحلة ابن فضال دراسة في البنية والدلالة)⁵، تسعى الباحثة من خلالها إلى الكشف عن القيم الحضارية والثقافية والاجتماعية والأسلوبية المميزة للعصر الذي عاش فيه ابن فضال، وعلى الرغم من تصريح الباحثة باعتمادها المنهج التاريخي وقراءتها للرحلة بوصفها وثيقة تاريخيّة⁶، فإنها خصصت المبحث الأول من دراستها لدراسة المستوى السردّي، وهو مبحث يشكو من قصور وعدم إدراك للمفاهيم السردية في جانب معالجتها السردية لخطاب الرحلة، من ذلك، مثلاً، خلط الباحثة بين مفهومي المؤلف الواقعيّ والقارئ الواقعيّ من جهة، ومفهومي السارد والمسرد له من جهة أخرى. فإذا دققت السرديات بالفصل بينها، وذلك بكون المفهومين الأول والثاني يتنزّلان في المستوى الواقعيّ، في حين يتنزّل المفهوم الثالث والرابع في المستوى السردّي (كائنات من ورق)، نجد الباحثة وقد نزلت المؤلف منزلة السارد، والقارئ العربي المعاصر لابن فضال منزلة المسرد له⁷.

كذلك، وإن صرّحت الباحثة في مقدمة دراستها بالكشف عن الجهاز البنيوي المركب لخطاب الرحلة، فإنها لم تول كبير عناية في تبيان ميكانيزمات اشتغال السرد والوصف والزمن في خطاب الرحلة، فنجدها وقد اكتفت بتحديد المفاهيم السردية، واستحضار أمثلة (جمل، وكلمات، وليست نصوصاً)⁸ على عجاله، دون الوقوف على بنية الخطابات الفرعية المؤسسة لخطاب الرحلة الكليّ، وهو ما ستصطلح دراستنا هذه على إبرازها.

¹ قريش، الآية (2_1).

² يُنظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد، الرياض، دار طيبة، ط1، 1993، ج8، ص491.

³ يُنظر: خولي، أحمد، انعتاق المعبد: دراسات في الفكر والأسطورة، ألمانيا، دار نور للنشر، ط1، 2017 ص30/5.

⁴ يُنظر: ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق: مفيد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1983 ج1، ص274-305.

⁵ باجابر، نوير سعيد عبود، رحلة ابن فضال دراسة في البنية والدلالة، مجلة الآداب واللغات، العدد: 4، 2016.

⁶ يُنظر: المرجع السابق، ص12.

⁷ يُنظر: باجابر، نوير سعيد عبود، رحلة ابن فضال دراسة في البنية والدلالة، ص17-18.

⁸ يُنظر: المرجع السابق، ص16-23.

ومن الدراسات السابقة كذلك، دراسة الباحثة الخامسة علاوي الموسومة بعنوان: **(العجائبية في أدب الرحلات: رحلة ابن فضلان نموذجاً)**¹، وهي دراسة تسعى الباحثة من خلالها على التأكيد بأن ثمة عجائبية وخرافية في كثير من النصوص السردية التراثية العربية القديمة، ومنها الجغرافية²، وتكمن أهمية هذه الدراسة في وقوفها على وظائف السرد العجائبي ودواعيه في رحلة ابن فضلان³.

3 - بين يدي رحلة ابن فضلان:

تُعدُّ رحلةُ ابن فضلان من طلائع الرحلات السفاريّة التي قام صاحبها بترهيبها وكتابتها وفق تقاليد أدب الرحلة السفاريّة، وهي رحلةٌ خرجت من بغداد إلى بلاد الصقالبة بأمر من الخليفة العباسيّ المقتدر بالله، وذلك بعد أن بعث ملك الصقالبة للخليفة رسالة يطلبُ إليه أن يبعث له من يفقه في الدين، ويعرفه بشرائع الإسلام، ويبيّن له حصناً يتحصّن به من الملوك المخالفين، ويحمل له أدوية كان قد طلبها، وقد تقرر أن يكون أعضاء الوفد الرسمي من أربعة أشخاص، هم سوسن الرسيّ مولى نذير الخرمي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي، وأحمد بن فضلان، كما تقرر أن يكون الأخير على رأس هذا الوفد البغداديّ⁴.

4- بنية الخطاب في الرحلة السفاريّة:

أخذ أدبُ الرحلة يسجّل ذاته، ويحاولُ بناءً معالمه بين الفنون الأدبيّة الأخرى منذ القرن الثالث هجري، أي منذ مرحلة ما بعد عصر الفتوحات الإسلاميّة، واتساع رقعة الدولة الإسلاميّة الذي رافقه ازدهارُ الفكر وتنوّع منابع المعرفة، ومن الممكن أن نعدّ هذه المرحلة، والتي ستمتدّ حتى القرن التاسع هجري مرحلةً جينيّة لأدب الرحلة، إذ رغم كثرة الرحلات التي قام المسلمون بها عبر البرّ والبحر، ورغم كثرة المؤلفات التي وضعوها عن الرحلات، بيدّ أنّهم أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ، وتقويم البلدان، أما تدوين الرحلة في مؤلّف منفرد فنادراً ما كان⁵.

تسجّل الملحوظة السابقة مسألةً جدّ مهمّة في منهج دراستنا خطاب الرحلة، ولحظةً بدنيّة لتعيين البنيات الخطابية للرحلة السفاريّة؛ ذلك لأنّ رحالةً من قبيل المسعودي، وياقوت الحموي، وغيرهما، قد وظّفوا مادة رحلاتهم في خطاب تاريخيّ مثلما فعل المسعودي في كتابه مروج الذهب، أو في خطاب معجميّ- جغرافيّ مثلما فعل ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، الأمر الذي يعني أن إنجازاتهم لا تُعدّ من بين أدب الرحلة؛ لأنّهم لم يكتبوا مادتهم وفق المقومات الفنيّة، والقواعد الخطابية اللتين يقتضيهما أدب الرحلة، والتي سنبسّط القول فيهما لاحقاً.

لئن كان السردُ فعلاً زمنياً وظيفته وأدائه عرضُ أحداث الحكاية وتقديمها، فإنّ الوصف فعلٌ مكانيّ يتجمّد فيه الزمن، ويتوقّف السردُ عن التّنامي لمعانقة ثبات المكان، وهما معاً يتفاعلان ويتناوبان ويتلازمان فيما بينهما لتقديم الحكاية مُشكّلين ما يُعرّف بـ(الخطاب السرديّ)، "فهذا التناوب يجلي التلازم الحاصل بينهما: فكلّ زمان يتحدّد في مكان، كما أنّ أيّ مكان لا يمكن إلا أن يُؤطر في اللحظة الزمانيّة المعيّنة، لذلك لا عجب أن نجد الصيغتين معاً في الخطاب تقدّمان من خلال ذات واحدة، هي ذات الراوي، فالراوي يرصدُ تطوّر الزمن بواسطة السرد، ويضعه في مكانه الذي يجري فيه بتحوّله إلى وصف"⁶.

وتلكما الصيغتان لا تتناوبان في مجرى الحكاية فحسب، بل وتتناوبان في نسبة هيمنة إحدى الصيغتين على الأخرى تبعاً لخصوصيّة الخطاب الذي يشتغلان فيه، فالخطاب الذي يتأسّس على السماع أو الذاكرة كالرواية مثلاً، تهيمُ عليه صيغة السرد؛ لأنّ وظيفته الرئيسية إعادة تقديم الأحداث بعد انتهائها، وتذكّرها وترتيبها، وملء فجواتها الزمانيّة، أمّا الخطاب الذي يتأسّس على المكان أو البصر والمشاهدة، فتهيمُ عليه صيغة الوصف؛ لأنّ وظيفته الرئيسية تقديم المشهود من لُذُن الشاهد.

ولأنّ الرحلة تتوسّل بالدرجة الأولى بثنائيّة (المعابن- المعائب)، أو (الشاهد- المشهود)؛ فيمكن أن ندرجها تأسيساً على الاعتبار السابق، وعلى اعتبار أنّها تنهضُ أوّلاً على بُعْد مكانيّ تضعه في بُعْد زمنيّ ضمن (الخطاب الوصفي).

تقتضي دراسة خطاب الرحلة مجموعةً من التمييزات الإجرائيّة ذات المرجعيّة السردية، وأولها التمييز بين الرحلة بوصفها فعلاً، والرحلة بوصفها خطاباً، فـ"الفعل" تقوم به ذات تاريخيّة محمّلة بأحاسيس وانفعالاتٍ ورؤياتٍ معيّنة،

¹ علاوي، الخامسة، العجائبية في أدب الرحلات: رحلة ابن فضلان نموذجاً، رسالة لنيل شهادة الماجستير من جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، 2005.

² يُنظر: المرجع السابق، ص3.

³ يُنظر: المرجع السابق، ص185-200.

⁴ يُنظر: ابن فضلان، أحمد بن العباس، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تحقيق:

سامي الدهان، بيروت، مكتبة الثقافة العالمية، ط2، 1986 ص22-24.

⁵ يُنظر: فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، الكويت، عالم المعرفة، 1989 ص94.

⁶ يقطين، سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، بيروت، دار العلوم ناشرون، ط1، 2012، ص171.

أما الخطاب فينجزه مرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة وغايات محدودة تتعين في علاقتها بالمرسل إليه، وبين الفعل والخطاب مسافة زمنية، فالأول سابق والثاني لاحق: فالذات التي رأت أو ترى ليست هي الذات التي تتكلم¹.

وبما أنّ الرّحلة السّفارِيّة رحلة تاريخيّة واقعيّة قامت بها ذات تاريخيّة (ذات الرّحالة) برغبة غيريّة (أمر من الخليفة أو الحكومة لإرسال برقيّة ماء، أو ستكشاف منطقة ما، وما تتضمنه من أنساق ثقافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة)، تمثّلت بالانتقال داخل الفضاءات الجغرافيّة في إطار زمنيّ محدّد البداية والنهاية (زمن الرحلة)، فإنّ خطاب الرّحلة السّفارِيّة يسعى إلى ترهين الرّحلة، أو إن شئت قلت: تليظ الرحلة عبر تمثيله بنظامي الكتابة والخطاب – وكل تمثيل هو تأويل بالضرورة- ما عايته هناك، وما مرّ به من مآزق وصعوبات، وما سمعه أو أُخبر به من خرافات وأساطير ومعتقدات، الأمر الذي يُسفرُ إلى تداخل الواقعيّ بالتخييليّ داخل خطاب الرّحلة السّفارِيّة.

4:1- زمن خطاب الرحلة السّفارِيّة:

لكلّ خطاب بُناه التي تمنحه فرادته، وتُهبه شكله المعماريّ وبناءه الفنيّ الخاصّين به، فتميّزه عن غيره من الخطابات، وأوّل هذه البُنى زمن الخطاب، فهو "تجليّات ترمين زمن القصّة وتمفصلاته وفق منظور خطابيّ متميّز يفرضه النوع، ودور الكاتب في عمليّة تخطيب الزمن"².

فالعلاقة الزمنية التي تنشأ داخل الخطاب هي علاقات تماثل أو اختلاف بين زمن الحكاية وزمن الحكّي، أو بين زمن (المتن الحكائي) وزمن (المبنى الحكائي) باصطلاح الشكلانيين الروس.

ولأنّ خطاب الرّحلة السّفارِيّة يسعى إلى ترهين رحلته ومواكبها من نقطة البداية إلى لحظة النهاية، فإنّه يبني زمنه وفق "حالة التوازن المثاليّ أو ما أصطلّح على تسميته بالنّسق الزمنيّ الصاعد، حيث يتمّ التوازي بين زمني الحكاية والسرد"³.

ولتوضيح هذه العلاقة فإننا نرسم الخطاطة الآتية:

(1) (2) (3) (4) فعل الرّحالة (المتن الحكائي):

الخطاب	الرّحلة	(المبنى)	الحكائي):
--------	---------	----------	-----------

(أ) (ب) (ج) (د)

وهكذا؛ فإن (1 توازي أ)، و(2 توازي ب)، و(3 توازي ج)، و(4 توازي د)، أي أنّ خطاب الرحلة يوازي فعلها، ويسير في ركبها، كذلك، فإنّ "خطاب الرحلة غير مفارق، لأنّه لا يقوم على المفارقات الزمانيّة بما فيها من استرجاع واستباق، قد ترد بعض المفارقات عن طريق التداخي ولكن الخطاب سرعان ما يوقّفها، ويقول بأنّه سبقدها في مكانها، ولكنها نادرة"⁴.

وتتّضح موازاة خطاب الرّحلة سير فعلها منذ البداية حتى النهاية في رحلة ابن فضلان، حيث ابتدأ رحلته بقوله⁵:

(فرحلنا من مدينة السّلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلّت من صفر سنة تسع وثلاثمائة)

وعند نهاية الرّحلة، ووصولها إلى بلاد الصّقالبة، قال⁶:

(فكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلّت من المحرم سنة عشر وثلاثمائة)

فكان لرحلته في الذهاب أن استغرقت منه أحد عشر شهراً سعى إلى ترهينها منذ البداية حتى النهاية مواكباً سيرها، وكان أن استخدم مؤشرات زمنيّة ومكانيّة لملء التنتقات من بغداد إلى بلاد الصّقالبة، ولتغطية المسافة الفاصلة بينهما بعد المحافظة على ترتيبها الخطيّ الكرونولوجي، فمن ذلك⁷:

¹ المرجع السابق، ص 175.

² يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي (الزمن- السرد- التّبير)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط4، 2005، ص 89.

³ بوطيب، عبد العالي، مستويات دراسة النصّ الروائي (مقاربة نظريّة)، الرباط، مطبعة الأمان، ص 148.

⁴ يقطين، سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص 181.

⁵ ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص 73.

⁶ المصدر السابق، ص 113.

⁷ المصدر السابق، ص 73-75.

(فأقمنا بـ(النهران) يوماً واحداً، فرحلنا مجدين حتى وافينا (الدسكرة) فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى (حوان) فأقمنا بها يومين، وصرنا منها إلى (قرميسين)، فأقمنا بها يومين، ثم رحلنا فصرنا حتى وصلنا إلى (همدان) فأقمنا بها ثلاثة أيام... ثم رحلنا إلى (سرخس)، ثم منها إلى (مرو)، ثم منها إلى (قشمان).)

2:4- المتكلم والخطاب:

يتوازي فعل الرحلة وخطابها بوجود ذات مركزية تجوب الفضاءات، فترى العالم من حولها وترصده من جهة، وتعيش تجارب مختلفة من المخاطر والأهوال من جهة ثانية؛ لتروي هذا وذاك في خطاب الرحلة الاستكشافية من جهة ثالثة.

إذن؛ فالذات المركزية، أو المتكلم في خطاب الرحلة السفارية ذات وظائف متعددة، فهي المبيّر، أي "الرائي والمُدرك الذي يُعرّف إليه داخل النصّ السرديّ بالإجابة عن السؤال: من يرى؟"¹، وهي الشخصية التي عاشت التجربة، وأدت فعل الرحلة، ولاقت ما لاقت من المآزق والأهوال، وهي الراوي، أي "الواسطة بين العالم الممّثل والقارئ، وبين القارئ والمؤلف الواقعي، ويُهتدى إليه بالإجابة عن السؤال: من يتكلم؟"².

وبربط كلّ من المبيّر والشخصية بالراوي، فإننا نهتدي إلى التقسيم التالي³:

أ. الراوي- المبيّر.

ب. الراوي- الشخصية.

أما (الراوي- المبيّر)، فيُعهد إليه "رصد العالم- الفضاء الموضوعي، وهو منه على مسافة، وهذه المسافة قد تبعد، وقد تقرب، وبواسطة الوصف كبنية خطابية صغرى (صيغة) يقدّم لنا الراوي المبيّر العالم الذي يُشاهده، ويتحقق ذلك من خلال ضمير الغائب"⁴.

ونجد (الراوي- المبيّر) في رحلة ابن فضلان مبيّناً حناياها في مختلف الفضاءات الجغرافية والاجتماعية والثقافية التي مرّ بها وراها، ثمّ وقف عليها ليرصدها ويصفها، ويصّحّ ذلك، مثلاً، فيما شاهده عند الصقالبة من عادة لبس القلائس، وما يفعلونه بها في حضرة الملك، كما في النموذج التالي⁵:

(وكلهم يلبسون القلائس، فإذا ركب الملك ركباً وحده يغير غلام، ولا أحد يكون معه، فإذا اجتمع السوق لم يبق أحدٌ إلاّ وقام وأخذ قلنسوته عن رأسه، فجعلها تحت إبطه، فإذا جاورهم ردّوا قلائسهم إلى رؤوسهم، وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير أو كبير، حتّى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلائسهم فجعلوها تحت أباطهم، ثمّ أرموا إليه برؤوسهم، وجلسوا ثمّ قاموا حتى يأمرهم بالجلوس، وكلّ من يجلس بيّن يديه فإنما يجلس باركاً، ولا يخرج قلنسوتهن ولا يُظهرها حتّى يخرج من بين يديه، فيلبسها عند ذلك).

فـ(الراوي- المبيّر)، كما يظهر في النموذج السابق، يشتغل بضمير الغائب، وشأنه في اشتغاله شأن آلة التصوير، ينقل للقارئ ما وقعت عيناه عليه، ويقدم له معرفة موضوعية دون تدخل ذاتي منه.

أما (الراوي- الشخصية)، فيختلف عن سابقه من حيث كونه ينفعل بالفضاء الذي يوجد فيه، ويقع عليه الفعل إيجاباً أو سلباً، ويتميّز عن المبيّر باستعماله ضمير المتكلم (مفرد- جمع)، وهو يتكلّم بواسطة السرد بتقديم ما وقع له هو بالذات"⁶.

ونجد (الراوي- الشخصية) في رحلة ابن فضلان مبيّناً حناياها، وهو يسرد لنا مختلف المكن والمآزق والأهوال التي مرّ بها، كما يّضحّ في ما لقيته من البرد الفارس وهو في (الجرجانية) في النموذج التالي⁷:

(وتطول مقامنا بـ(الجرجانية)، وذاك أنا أقمنا بها أياماً من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوّال، وكان طول مقامنا من جهة البرد وشديده...، ولقد كنتُ أخرج من الحمام، فإذا دخلتُ البيتُ نظرتُ إلى لحيّتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتّى كنتُ أدنيتها من النار، ولقد كنتُ أنا في بيت جوف بيت، وفيه قبة لبود تركية، وأنا مدبّر بالأكسية والفري، فربما التّصقّ خذي على المخدة).

¹ القاضي، محمد، وآخرون، معجم السريديات، تونس، دار محمد علي، ط1، 2010، ص369.

² المرجع السابق، ص195.

³ يُنظر: يقطين، سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص186.

⁴ المرجع السابق، ص186.

⁵ ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص131.

⁶ يقطين، سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص187.

⁷ ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص84-85.

فـ(الرّايـيـ الشـخصيـة) كما يتبيّن في النّمودج السّابق يشتملُ بضمير المتكلّم (مفرد- جمع)، وهو يسردُ لقايريه التّجربة الذاتية التي مرّ بها وهو يجرّب المسالك والممالك التي أختّم عليه خط سير الرّحلة أن يدهلّها.

3:4- السرد والتقرير:

تأسيساً على التّمييز الذي شيدناه سابقاً بين (الرّايي- المُبَيّر)، و(الرّايي- الشـخصيـة)، فإننا نسعى نحو التمييز بين نمط كلا الخطابين، إذ إن من بدهيات السرديات أن أيّ تعبير في صيغة المتكلّم بفضي، حتّمًا، إلى تعبير صيغة الخطاب، وذلك كون كلّ صيغة من صيغ المتكلّم تضطلعُ بتشييد خطابها الخاص، بسماته ومقوماته، داخل الخطاب العام.

سُنسَمي الخطاب الذي يُقدّمه (الرّايي- الشـخصيـة) (السرد)، أما الذي يضطلعُ به (الرّايي المُبَيّر) فسُنسَميه (التقرير)، وهما يشتغلان ويتناوبان في خطاب الرّحلة حتى يتحقّق للأخير سمائه ونوعيته، وكون خطاب الرّحلة السفاريّة يتمحور حول ذات مركزية (شخصية) تتحرّك في الفضاء، نجد خطاب (الرّايي الشـخصيـة)، أو (السرد) هو الخطاب الإطار، فيه يُفتتح خطاب الرّحلة، وكلما تقدّمت الشخصية في الانتقال عبر الفضاءات، يتراجع خطاب (الرّايي- الشـخصيـة) لضرورة خطاب (الرّايي- المُبَيّر)، أو قل: يتراجع السرد لضرورة التقرير لرصد الأخير ما عاينه في مختلف الفضاءات، إنّه غاية ترهين الرّحلة، إلا إذا اقتضت الحاجة لضرورة رجوع السرد، (تجربة ذاتية حصلت مع الشخصية، وكان عليها سردها)، وهكذا دواليك إلى أن ينتهي خطاب الرّحلة بالسرد وهو يعلن اكتمالها!

وحتى يتضح اشتغال السرد والتقرير، وتناوبهما في خطاب الرحلة السفاريّة، سنورد النموذج الآتي²:

(ثمّ صرنا بعد ذلك إلى (البنجناك)، وإذا هم نزول على ماء شديب بالبحر غير جار، وإذا هم سمر شديبو السُمرة، وإذا هم مُحلّقو اللّحي فقراء خلاف (الغزية)، لأنّي رأيت من (الغزية) من يملك عشرة آلاف دابة، وأكثر، ومائة ألف رأس من الغنم... ثمّ ارتحلنا، فنزلنا على (نهر جيح)، وهو أكبر نهر رأيناه، وأشدّه جريةً، ولقد رأيت سُفرةً انقلبت فيه فغرق من كان فيها، وذهب رجال كثير من الناس، وغرقت عدة جمال ودواب، ولم نعبّره إلا بجهد).

ولتبيين هذا الاشتغال، وذاك التناوب بينهما، سنرسم الخطاطة التالية:

ثمّ صرنا (سرد) _____ وإذا هم نزول... (تقرير) _____ لأنّي رأيت (تقرير)
 ثمّ ارتحلنا (سرد) _____ وهو أكبر نهر رأيناه (تقرير) _____
 ولقد رأيت (تقرير) _____ ولم نعبّره إلا بجهد (سرد)....

4:4- الغرائبي والعجائبي:

ما دام الإنسان في عالمه الذي أطال المقام فيه حتى ألقه، فاعتاد عليه، فإنّه في عالم الألفة، فإذا انتقل من عالمه، واغترب إلى عالم آخر، فسرعان ما ينتقل من عالم الألفة إلى عالم الغرابة، إذ إن أساس الغرابة ومحرّكها السفر والرّحل والارتحال والتّرحال بين عالمين، الأول مألوف، أما الثاني فغريب.

لذا؛ فلا عجب أن نجد عنصر الغرابة مهيمًا في خطاب الرّحلة، فعندما أزمع الرّحالة على الرّحلة، "يعني أنّه انتقل من فضائه المألوف إلى فضاء غريب...، ولو بقي في الفضاء الأوّل لما كانت هناك حكاية، إذ الشرط الأساسي للحكاية هو الانتقال، أي اجتياز العتبة الفاصلة بين فضاءين"³.

فإذا أخذنا بمطالعة رحلة ابن فضلان، وجدنا الغرابة ماثلةً بين حناياها، هنا وهناك، فهو العربي الناطق بالعربية، ولا يجيد سواها، يستغرب من لغات الأقوام التي يمرّ بها، فيشبهها بـ"صباح الرّازير، وقيق الضفادع"⁴، وهو الفقيه المسلم يستغرب من أقوام لا يدينون لله بدين، بل يُسمون كبراءهم أربابًا، وأقوام يتزوج الأكبر من ولد الفقيدهم بمرأته، وغيرهم ينتفون لحاهم، وآخرين ينزل الرجال والنساء منهم إلى النهر فيغتسلون جميعًا عراة لا يستتر بعضهم من بعض⁵.

ولئن كان قد سجّل غرابته من الإنسان، ومختلف أنساقه الثقافيّة، والاجتماعيّة، فإنّه سيسجّل غرابته من الأنساق البيئيّة كذلك، وحتى لا نطيل المقام، فإننا سنكتفي بإيراد نموذج واحد، يقول⁶:

(ورأيت الحياتِ عندهم كثيرة، حتّى إنّ العصن من الشجرة لتلثفت عليه العشرة منها والأكثر، ولا يقتلونها ولا تؤذيهم، حتّى لقد رأيت في بعض المواضع شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مائة ذراع، وقد سقطت، وإذا بدؤها عظيم جدًّا فوقفتُ أنظرُ إليه إذ تحرّك، فراعني ذلك، وتأمّلته فإذا عليه حية قريبة منه في الغلط والطول، فلمّا رأيتي سقطت عنه، وغابت بين الشجر، فجنّت فرعًا، فحدثتُ الملكَ ومن كانوا في مجلسه فلم يكثرثوا لذلك...)

¹ يُنظر: يقطين، سعيد، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، ص188-189.

² ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص106-107.

³ كيليطو، عبد الفتاح، الأدب والغرابة: دراسات بنيويّة في الأدب العربي، دار البيضاء، دار توبقال، ط4، 2007، ص109.

⁴ يُنظر: ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص82.

⁵ يُنظر: المصدر السابق، ص91، ص94، ص100، ص134، على الترتيب.

⁶ المصدر السابق، ص127.

تتجلى المفارقة بين الألفة والغربة في نهاية التّمودج، فهو ليس ابن البيئة التي شاهد فيها الحيات، بل غريب عنها، فراعته وهالته وأثارته غرابته لدرجة أن قدّم ذلك المشهد لقارنه، أما الملك وحاشيته فلم يكتروا لما حدثهم به. لماذا؟، لأنهم ببساطة أهل البيئة وذووها، وقد ألفوها، وما فيها، فلا داعي للاستغراب مما هو مألوف عندهم.

مثلما وجدنا عنصر الغربة مُهيمًا في خطاب الرحلة، فإن الأخير لا يخلو من أن يتضمّن، وإن بدرجة أقل بين الحين والآخر، عنصر العجائبيّة، أو الفانتاستيكية، الذي "هو جنس خطابي يتولّد من التردّد الذي يحصل للقارئ و/أو الشخصية عندما يفاجأ بحدث يخرق قوانين العالم، كأن يظهر الشيطان أو الجان فجأة، فيقف القارئ من الظاهرة أحد موقفين: إمّا أن يعتبر الخارق وهما وخيالاً فتظلّ قوانين العالم على ما هي عليه، ويكون ما يمرّ به من قبيل الغريب، وإمّا أن يعتبر أن بالإمكان ظهور الشيطان، وإن في حالات نادرة، فيكون للواقع آنذاك، قوانين مجهولة تتحكّم فيه، وبذلك يكون القارئ في إطار العجيب"¹.

تضمّنت رحلة ابن فضلان عددًا لا بأس به من التّمادج العجائبيّة، نكتفي بإيراد واحد منها، يقول²:

(ورأيت في بلاده* من العجائب ما لا أحصيتها كثرة، من ذلك أنّ أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسيّة أفق السماء، وقد احمرّت احمرارًا شديدًا، وسمعت في الجوّ أصواتًا شديدة، وهمهة عالية، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه، وإذا فيه أمثال الناس والثواب، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه تشبه الناس، رياح وسيوف أتبيتها وأتخلّتها، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضًا رجالًا ودواب وسلاحًا، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة، ففرعنا من ذلك، وأقبلنا على النضرع والدعاء، وهم يضحكون منّا ويتعجبون من فعلنا).

تشي تقنيات السرد التي اشتغلت في النموذج السابق، بشكلٍ سافر، باعتقاد الرّاوي أن ما يقدمه يتنزّل في لذه منزل العجائبيّ، الأمر الذي يبيّن من خلال ازدواج دوره مع ذات مبترّة، تشاهد وتسمع وترى (رأيت قبل مغيب الشمس...، سمعت في الجوّ أصواتًا شديدة...)، ومع ذات شخصية عاشت التجربة (فزعنا... فأقبلنا...)، وما كان ذلك إلا لإيهام القارئ معه بواقعية ما يسرده، الأمر الذي جعل خطاب الرحلة السفاريّة يجمع بين الواقعيّ والمخيّل.

لا يعني تجنيس خطاب ما في إطار المرجعيّ انعدام عنصر التخيل فيه، ذلك أن الأخير جوهر يرتبط بالكيان الإنسانيّ من جهة، وبالخطاب عامة من جهة أخرى، فالخطاب هو أداة تمثيل يشغل وفق نظم العلامات المختلفة، والعلامة، من منظور سيميائيّ، تفاعل بين دال (صورة سمعية)، ومندلول (تصور ذهنيّ)، ولا وجود لمرجع فيها كما حدّد ذلك (دي سوسير) بشكلٍ قطعيّ، "فعلّ الرّغم من الخاصية التوثيقية التي توحى بها مثل هذه النصوص - سيرة ذاتية، رحلة، مذكرات، يوميات- سواء على مستوى أحداثها، أو على مستوى موازياتها النصية التي توجه القراءة في هذا الاتجاه، فإن دور التخيل في بنائها وتشكلاتها كبير، حيث يتفاعل ما هو واقعيّ وما هو تخيليّ بصورة يصعب الفصل بينهما أو تحديد أين ينتهي الواحد لبيد الآخر"³.

5- خاتمة:

لما انشغلت معظم الدراسات العربيّة المنجزة حول أدب الرحلة في مقاربتها من منظورات تاريخية وحضارية - وهي مقاربات جدّ مهمة إذ لا ننقص من قدرها- حاولنا في هذه الدراسة مقارنة الرحلة السفاريّة من منظور آخر، وذلك عبر الالتفات إلى أدبية الرحلة، وجماليّاتها، وميكانيزمات اشتغال خطابها، مستعينين بالأدوات الإجرائية والتحليلية التي تقدّمها السرديات.

يحتم علينا تجنيس الرحلة في إطار الأدب بضرورة الالتفات إلى خطابها، وعدم تهميشه بقصر النظر على تلقّيها بكونها وثيقة مرجعية تزوّدنا بمعلومات تاريخية وحضارية فحسب، من هنا، يوصي الباحث بضرورة التفات الدراسات العربيّة اللاحقة إلى دراسة بنية خطاب الرحلة العربيّة، على تعدد بواعثها بين سفارية، واستكشافية، وعلمية، ومكّية (حجازية).

Sources and references:

- The Holy Quran
- Butayeb, Abd EL-aley, **Mostoyat Dirassat AL-Nas ELrouaey (Mogarba nathreva)**, AL-Rabat, Mtba`at AL-omnyia, (1th ed), 1999
- Khouly,Ahmed, **Inetag EL-mabad: Dirassat Fi EL-fikr o Alostora**, ALmania, Dar Nour, (1th ed), 2017

¹ القاضي، محمد، وآخرون، معجم السرديات، ص305.

² ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، ص123.

* الإحالة إلى ملك الصقالبة.

³ جبار، سعيد، من السردية إلى التخيلية، بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، بيروت، منشورات ضفاف، ط1، 2012، ص214.

Draft

- Ibn Abdrabou AL-andalousy, Ahmed bn Mohamed, AL-egd AL-farid, varified by: Mofed gamiha, Beirut, Dar scientific books, (1th ed), 1983

- Ibn Fadlan, Ahmed bn AL-aba`as, Reasalaat Ibn fadlan Fi alrihla Ela Belaad AL-Tourk, Alkharz, Alrous, ALasgalva, varified by: Sami AL-dahan, Beirut, Maktabat AL-THagafa AL-a`alamia, (2th ed), 1987

-Fahim, Houseen Mohamed, Adab AL-rihlat, Kouit, ALAM EL-marifa, 1989.

- ALgadi, Mohamed, Mo'jam AL-sardiat, Tounis, Dar Mohamed Ali LLnashr, (1th ed), 2010.

-Ibn kathir, Ismail ibn Omer, Tafssir AL-quran AL-azim, varified by: Sami Ibn Mohamed Aslama, AL-ryad, Dar Tayba, (1th ed), 1999.

-Kylito, ABD EL-fatah, AL-adab oa AL-garaba, Casablanca, Dar Toubigal, (4th ed), 2007.

- Yagteen, Saeed, Tahlil ELkhtab alroyay(alsard,alzaman, ALtabir), Casablanca, ALmarkaz AL-thgafi ALaraby, (4th ed), 2005.

- _____, Al-sard AL-araby: Mafhim o Tajalyat, Beirut, ALdar LLolom Nachroon, (1th ed), 2012.